محمد اشويكة*

التاريخ والسينما

قراءة في كتاب *عن التاريخ: طارق علي وأوليفر ستون يتحادثان***

يلجأ المخرجون الراسخون في مجال الفن السابع، العارفون بالإضافات الفكرية والإضاءات التاريخية التي يمكن للسينما أن تقوم بها حينما تتصدى لبعض المغالطات التي لحقت التاريخ البشري، إلى الانفتاح على قراءة ومطالعة ما يفيد موضوعاتهم، أو يقومون بمحاورة المتخصصين لتوجيه بوصلتهم الفنية نحو الموضوعية الممكنة، وذلك بغرض فك رموز القضايا المعتمة التي عتّم عليها بعض السينمائيين الذين يشتغلون ضمن الماكينات الأيديولوجية الكبيرة ضمن استراتيجيات إنتاجية تسعى إلى تغيير ذاكرة الشعوب ومحوها، كهوليود وبوليود وغيرهما من السينمات التابعة للأنظمة الكليانية.

لم يكن حوار المخرج والسيناريست المتميز أوليفر ستون مع السينمائي والروائي واليساري المعروف طارق علي من باب الصدفة، وإنما من باب كونهما يتقاسمان مرجعية تنطوي على بعض القيم المشتركة؛ فالأول مشغول بالتنقيب في بعض الأسئلة الحارقة في مجتمعه الذي تتعايش فيه قوميات وأعراق وأجناس أتت بها رياح الهجرة عن قصد أو رغمًا عن أنفها، ليصطدم بقضايا إبادة السكان الأصليين وصراع الهويات، والثاني مناضل يساري، زاوج بين الكتابة السينمائية والكتابة السياسية التي تسعى إلى تبنّي الفكر الأممي الساعي إلى الرقي بالإنسان، وإقرار العدالة والمساواة، وإنصاف ذوي الحقوق المغتصبة...

يشكل هذا الكتاب ثمرة لقاء صوّره ستون مع علي في سبع ساعات تقريبًا، وكان مداره التحولات العميقة التي طاولت العالم عقب الحرب العالمية الثانية، وشكلت في عمقها أرضية للانفتاح على قضايا موازية كانت تشغل بال المخرج قبل الانخراط في مشروعه السينمائي الوثائقي الفريد حول «التاريخ المجهول للولايات المتحدة». وقد تضمن الكتاب/المحاورة مقدمة للمترجم، وتقديمًا مهمًّا لعلي

---

* كاتب وباحث من المغرب.

** هذا الكتاب ترجمة للنسخة الأصلية التي تحمل عنوان: *On History: Tariq Ali and Oliver Stone in Conversation*.

ضمَّنه أسباب صدور الكتاب وظروفه، ولا سيما أن المخرج ستون اتصل به بعد قراءة كتابه «قراصنة الكاريبي: محور الأمل»، وذلك بعد أن أخرج ـ فضلًا عن أفلامه الأخرى ـ ثلاثة أفلام سينمائية شكلت في مجموعها رؤية مغايرة لحرب فيتنام المأساوية، وهي «الفصيلة» (Platoon) (١٩٨٦)، و«المولود في الرابع من تموز» (Born on the Fourth of July) (١٩٨٩)، و«الجنة والأرض» (Heaven & Earth) (١٩٩٣). كما أنه شارك كجندي ضمن وحدات المشاة الأميركية في هذه الحرب، وهو ما جعل رؤيته الراديكالية لبلده نابعة من المعايشة والمكابدة، فضلًا عن إنجازه أشرطة وثائقية حول أميركا اللاتينية كفيلمي «كوماندانتي» (Commendante) (٢٠٠٣) و«جنوب الحدود» (South of the Border) (٢٠٠٩) الذي يقول عنه علي: «لا يطمح الفيلم إلى أن يكون رؤية تحليلية ومحايدة وباردة للزعماء التواقين إلى تحرير أنفسهم من قبضة الأخ الأكبر في الشمال. من جهة أخرى، لا يخفي الفيلم تعاطفه مع قضيتهم، وهي ـ في جوهرها ـ صرخة تطالب بالحرية»[١]. هكذا، فأرضية الكتاب ترشح بأفكار تواقة إلى الحرية، والدفاع عن قضايا الإنسان العادلة ما دام المتحاوران يمتحان من ينبوع الفكر اليساري الذي يسعى، كتيار فكري وسياسي، إلى تحقيق العدالة الاجتماعية عبر تغيير المجتمع رغم اختلاف مشاربه الاشتراكية والليبرالية.

ينطلق فصل الكتاب الأول «من الثورة الروسية إلى الحرب العالمية»، ويبدأ المخرج بالتساؤل حول فرضية تأثير تلك الثورة في أميركا والعالَم، ولا سيما أن الحرب طبعت الأحداث بالقضاء على الطبقات والنظام القديم برمّته، حيث أطاحت القيصر في روسيا فأدرك الأميركيون التغيرات الجذرية التي تطاول أوروبا، فانسحبوا عن أميركا الشمالية مُقْرِضِين بريطانيا لمواجهة ألمانيا، وذلك ما ساهم بمعنى ما في حركة العمال الألمان الذين انقسموا إلى بلشفيين واشتراكيين ديمقراطيين، لكن بروباغاندا القوميين والفاشيين الألمان ستساهم بشكل أساسي في اندلاع الحرب العالمية الثانية وفقًا لما دار من أفكار حملتها أدبياتهم ومنشوراتهم، بحسب علي (ص ٢٨) الذي عزا انهزام الثورة الروسية إلى القسوة التي مورست لفرض برامجها، خاصة في المناطق الزراعية، وهو ما جعل ستون يربط ذلك بما اقترفه الملك ليوبولد في الكونغو البلجيكية، حيث قدِّر عدد القتلى بما بين ١١ مليون نسمة و١٢ مليون نسمة. وقد أثار ضعف الإمبراطورية البريطانية اهتمام النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة زمن روزفلت، الأمر الذي استوجب السيطرة على أكبر عدد من مستعمراتها لضمان السيطرة على العالَم كهاجس استراتيجي يوجه السياسة الخارجية الأميركية، وهي الفكرة الثاوية والمعلنة معًا في هذا الجزء من الكتاب، الذي أشار إلى «ميثاق الأطلسي» الذي صاغته بريطانيا وأميركا للاتفاق بشأن النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، والذي تلاه خطاب روزفلت المتضمن الحريات الأربع (حرية التعبير، حرية ممارسة الشعائر الدينية لمختلف الأديان، الحرية من العَوَز، والحرية من الخوف).

يدور الفصل الثاني حول «نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية» الذي شكّل عصبَ الصراع فيه التسابقُ المحموم في سبيل السيطرة على الموارد الأولية، وخاصة النفط والحديد والبوكسيت الذي يستخرج منه الألمنيوم، فكان الصراع محتدمًا بين دول المحور (اليابان وألمانيا وإيطاليا) ودول التحالف (فرنسا

(١) **عن التاريخ: طارق علي وأوليفر ستون يتحادثان**، ترجمة غسان زكريا (دمشق: دار الرحبة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤)، ص ١٧.

وبريطانيا والولايات المتحدة)، والتي شكلت الهند مثالًا ساطعًا لجشعه، وهو ما انتهى ببروز الولايات المتحدة كقوة إمبريالية توسعية تخوض الحروب للحفاظ على هيمنتها (ص ٥٤). وقد مهدت هذه الوضعية لبروز الليبرالية الجديدة والسوق الحرة للجمع بين الاقتصاد والسياسة المرتبطين بتحرير التعاقد التجاري والصفقات من سلطة الدولة والتشريعات، رغم أن مصطلح «ليبرالي» يشير في الولايات المتحدة إلى الميالين إلى اليسار، والمناوئين للمحافظين من الناحية الاجتماعية، وستون يُعَدّ واحدًا ممن يشملهم ذلك التوصيف بسبب أفكاره التي تجلب إليه انتقادات المحافظين، خاصة أنه ينبش في قضايا القصف النووي وحركة عدم الانحياز وحلف جنوب شرق آسيا والتمييز العنصري وقانون «هافت ـ هارتلي» الذي كان يهدف إلى الحد من نشاطات النقابات واتحادات العمال في أميركا وما تلاه من تضييق على الحركات الاحتجاجية.. وما صاحب ذلك من تأثيرات في الأجيال اللاحقة ضاعفت من ضغوطها الحملات المكارثية (نسبة إلى جوزيف ريموند مكارثي) المصحوبة برُهاب الشيوعية الذي طاول مناضلين وعلماء وكتّاباً وفنانين عدة، منهم مارتن لوثر كينغ وألبرت أينشتاين وآرثر ميلر وتشارلي شابلن!

تتمفصل مدارات الفصل الثالث من الكتاب حول «الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له» بعد أن أُطيحت الحكومات الوطنية بعدوانية شديدة، والحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، والحرب الأهلية اليونانية (١٩٤٦ ـ ١٩٤٩) التي ذهب ضحيتها متبنّو الأفكار الشيوعية. وقد نجم عن هذه الحالة تسليم الإمبراطوريات المتفككة مهمة القيادة للولايات المتحدة. وما جرى في اليونان هو نفسه ما جرى في العربية السعودية وفي كثير من دول العالَم، على حد تعبير طارق علي (ص ٨٦).

هكذا، ستكون الأوضاع مواتية للحرب الباردة التي سادت بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وقد أدى ذلك إلى بروز نوع من التفاوت الاقتصادي والاجتماعي بين الدول التابعة للقوة الأولى والدول التابعة للقوة الثانية، فانعكس بشكل سلبي على الطبقة الوسطى التي اختلفت مساراتها من حيث اتساع نطاقها أو ضيقه بين طرفي الصراع، فكان مشروع مارشال الذي صيغ على شاكلة خطة تدعم من خلالها الولايات المتحدة دول أوروبا الغربية الصناعية اقتصاديًا لتتعافى وتتجنب تأثير المد الشيوعي المحدق بها، وقد بلغ الصراع شأوه من خلال حصار برلين (١٩٤٨) وتقسيم المدينة إلى شرقية وغربية.

يرتكز النقاش في الفصل الرابع على «باكس أمريكانا؟» (Pax Americana) التي تعني في اللاتينية «السلام الأميركي»، والتي استُمدت من «باكس رومانا» وقبلها «باكس بريتانيكا». وهي تفيد في أصلها الروماني بأن هيمنة قوة واحدة على العالَم، وعلى الطرق التجارية والمعابر البحرية، من دون أن يكون لها مناوئون أو أعداء، ستؤدي إلى فرض السلام بالقوة (ص ١٠٨)، وهي الفكرة التي لم تنجح. ويتطرق هذا الفصل إلى خطورة الدول ذات المنشأ الطائفي، كإسرائيل، وتغلغُل الولايات المتحدة في العالَم بشكل كبير كما يشير إلى ذلك كتاب **التاريخ المجهول للولايات المتحدة** (*The Untold History of the United States*) الذي أورد مؤلفاه أوليفر ستون وبيتر كوزنيك معلومة إحصائية

للبنتاغون لسنة ٢٠٠٢ تدل على الوجود العسكري الأميركي بأشكال مختلفة في ١٣٢ دولة، فما بالك بتغلغلها اليوم؟!

تتناول سلسلة الأفلام الوثائقية التي أنجزها ستون «التاريخ الآخر لأميركا»[٢]، وتتكون من عشر حلقات هي: الحرب العالمية الثانية ـ روزفلت، ترومان، ووالاس ـ القنبلة ـ الحرب الباردة ١٩٤٥/١٩٥٠ ـ الخمسينيات: أيزنهاور، القنبلة والعالَم الثالث ـ ج. ف. ك. JFK ـ جونسون، نيكسون وفيتنام ـ ريغان، غورباتشوف والعالَم الثالث ـ بوش وكلينتون ـ بوش وأوباما: زمن الإرهاب. والجلي من العناوين نبش المخرج في الموضوعات الشائكة في تاريخ أميركا، مع التركيز على كل ما يتعلق بالحرب وتبعاتها؛ إذ يرى المخرج، بنوع من الحب المكتئب، أن تلك الأحداث المنحرفة تندرج ضمن سياق سياسي وتاريخي متصل، لأن الوقائع أظهرت أن ذلك ناتج من قسوة وصرامة مُبالَغ فيهما، فالرؤساء يتغيرون ولكن النظام راسخ ومستقر، ومن ثوابته الثنائية الحزبية، والمجمّعات الصناعية والعسكرية الضخمة، والنظام الاستخباري العنكبوتي، وقوة البورصة الضاربة والمتحكمة في رواج رؤوس الأموال، والإمبراطوريات الإعلامية التي تقوم بالدعاية للحكومة وتوجيه الرأي العام، والهندسة السياسية للكونغرس التي لا تراجع القرارات الرئاسية أو التنفيذية. لقد أضحى الهاجس الأول للسياسة الأميركية اللعب على وتر الأمن الداخلي والخارجي معًا، تحت تعِلّة التهديد أو عدم الأمان أو الخوف، وهو ما ضاعف الهواجس النفسية للمواطنين الأميركيين الذين انطلت تلك الأقاويل على غالبيتهم الساحقة.

يدور حديث المتحاورَين في الفصل الخامس حول «الانفجار المعاكس» (Blowback) الذي استقاه علي من عنوان كتاب يحمل الاسم نفسه للمؤلف تشالمرز جونسون، الذي ينتقد السياسة الخارجية الأميركية بحدة، متنبئًا بأنه سيأتي وقت قريب يقرر فيه المتضررون من السياسة الأميركية أن يحققوا العدالة الاجتماعية ويوجهوا إلى هذه السياسة ضربة قاسية (ص ١١٩). وقد انتشر الكتاب بشكل فائق بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، لأن الفكرة تتمحور حول عكس الضربة للولايات المتحدة بعد أن حذرها الجميع من خطورة دعم الجهاديين في أفغانستان ضد السوفيات، وها نحن نتابع التجليات الدرامية بشتى تفصيلاتها ومفاجآتها.

يناقش المتحاوران فكرة الإرهاب الذي يعرّفه علي بأنه اقتناع مجموعة صغيرة من الأشخاص ـ أحيانًا بالمئات، وأحيانًا بالآلاف ـ بأن الطريقة المثلى لتغيير العالَم هي ضرب أهداف استراتيجية (ص ١٢٠). وانفتح النقاش على مستنقع أفغانستان، وحرية المرأة في ظل الشريعة الإسلامية ذات التأويل الوهابي، وغزو العراق ومقتل نصف مليون من أطفاله كفاتورة لكسر شوكة دولة مستقلة تقف في وجه إسرائيل.

ينتهي الكتاب بفصل مقتضب تحت عنوان «انتقام التاريخ» يفتتحه ستون بمقتطف من كتاب علي **صدام الأصوليات**؛ إذ يُورِد مقطعًا دالًا حول العوامل والأحداث التاريخية التي يمكن أن تتضافر لتوليد انفجار غير متوقع. وكان المُجِيب واثقًا من تنبؤه بوقوع ذلك، مع العلم أن المحادثة جرت قبل موجات الاحتجاج في العالَم العربي. وشمل النقاش احتمال انهيار الإمبراطورية الأميركية الذي

(٢) ذاك هو العنوان الفرنسي للسلسلة بعد بثها ونشرها في فرنسا ابتداء من كانون الثاني/يناير ٢٠١٤.

رهنه المستجوَب بمدى رفض الشعب الأميركي لنظامه الاقتصادي (لنتأمل تظاهرات «احتلوا وول ستريت» مثلًا)، مستندًا في استشرافه ذاك على درس التاريخ الذي أثبت أن مسألة المحو غير ممكنة، فهو عنيد ولا يرحل بسهولة. وإذا ما حاول أحد قمعه، فإنه يعود للظهور بصورة مخيفة، كما قال ستون (ص ١٣٤). وفي سياق إجابته عن إنكار الإمبراطورية الأميركية للتاريخ، مقارنة بليغة بين أفكار المتطرفين الذين وصلوا في البدء إلى أميركا، وأفكار الوهابيين أو أسامة بن لادن، مؤكدًا التشابهات الكثيرة بين الأصولية البروتستانتية والأصولية الوهابية، مستخلصًا ـ وداحضًا في آن واحد ـ أننا أبعد ما نكون عن أطروحة نهاية التاريخ التي قال بها فرانسيس فوكوياما أو صدام الحضارات لصاحبها صمويل هنتنغتون. وينتهي هذا الفصل والكتاب معًا بإشارة ستون إلى بعض المقتبسات التي أوردها علي عن كل من كيبلنغ وكونراد وقصيدة عراقية عن الطير.

يمثل الهدف من عرض أهم مفاصل هذا «الكتاب ـ المناظرة» أن السينما ليست مجرد ترفيه يرتبط بالنجوم، والذهاب في أوقات الفراغ إلى قاعات العرض لاستهلاك الهمبرغر وشرب محلول الكولا الأسود، وإنما هي وسيلة تعبيرية بالغة الأهمية للنبش في القضايا المنسية والمقموعة في المجتمعات التي تدَّعي الحرية والتحرر. ولعل نموذج هذا الحوار يقدم فكرة متكاملة عن المخاض الفكري الذي يدفع المخرجين الكبار إلى البحث والتنقيب وملاقاة المتخصصين قبل مغامرة التصوير.

لقد قدم المخرج والكاتب أوليفر ستون درسًا بالغًا للسينمائيين والباحثين معًا، ليبرهن على أن السينما تمتلك من الجاذبية ما يجعل المخرج منغمسًا في دوامات مجاهل التاريخ ومضايق الرقابة التي يتحداها بعض المخرجين في الدول التي تستغل السينما كآلية لتوجيه الرأي والمغالطة وطمس التاريخ. إن ما قام به ستون وطارق علي شبيه بما أنجزه منير العكش[٣] حينما كرس جزءًا من انشغاله لقضايا الهنود الحمر، وما تعرضوا له من إبادة ممنهجة لطمس هويتهم، ودفن فكرة السكان الأصليين. هكذا، تكون السينما موازية للفكر، ويعادل المخرج المفكر الباحث عن الحقيقة، ويتحول الفيلم إلى وثيقة تاريخية تحفظ للبشرية إيجابياتها وسلبياتها، بل وتصبح السينما في حد ذاتها وسيلة نضالية للوقوف في صف المضطهَدين والمقهورين وضد ماسحي الذاكرة، من حكام وجنرالات، وفنانين أيضًا.

يظهر أن إنجاز أي فيلم لا يرتكز فقط على إتقان لغة السينما، وإنما يتعدى ذلك إلى الإلمام بتاريخ الفن والفكر معًا، ودراية كافية بأهم الأحداث التاريخية التي أثّرت في البشرية. وقد أشار طارق علي في سياق هذا النقاش، مثلًا، إلى أن الماركسية تشكل في جوهرها منهجًا لفهم التاريخ، فأهم مساهمة نظرية قدّمها كارل ماركس تتجلى في أن المحرك الأساسي للتاريخ ـ وليس الوحيد ـ هو الصراع الطبقي، والمساهمة الثانية هي شرحه طريقة عمل الرأسمالية، فالسعي إلى الربح كدافع رئيسي لوجود رأس المال يحدد كل شيء (ص ١٠٩). وقد قاد الأمر إلى فشل الرأسمالية عشرات المرات، في حين حظيت الاشتراكية بتجربة واحدة، على حد قول طارق علي.

(٣) يراجَع في هذا الباب: منير العكش: **حق التضحية بالآخر: أميركا والإبادات الجماعية** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٢) **وأميركا والإبادات الجنسية: ٤٠٠ سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٢).